شخصية الشافعي
على ضوء علم النفس الحديث

الأستاذ أنور الجندي

يتمثل لى الإمام « الشافعي[1] » حين أدرس سيرته ، عملاقا نحيلا ، ضامر الجسد ، مقبول الطلعة ، على الرغم مما قيل عن ملامحه.. فليست الملامح فى الحق هى كل شئ.. وقد تبدو غير متسقة ، ولكن يبرز من ورائها « روح » صاحبها غاية فى القبول والتقدير عند من يتصل به

وأرى فيه مظهر الرجل الذى يصفه علم النفس بالانطوائى.. وكل الرجال الذين احتضنوا الأفكار والدعوات والمذاهب ، كانوا من هذا الصنف

وقد عرف الشافعى بأنه يحب العزلة أحيانا ، ويلجأ إلى الصمت أحيانا ، وأنه يمكن لنفسه بذلك من التأمل والدرس والمراجعة وهى عدة الفقيه والداعية

وأتاح له هذا الجسد النحيل ، القدرة على السفر والرحلة واحتمال مشقة الانتقال بين العراق ومكة واليمن ومصر

ولد فى مكة ، ورحل إلى المدينة ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم رحل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة ... وقصد إلى بغداد ثم إلى مصر ، حيث أقام فيها بقية حياته .. ، وقد أتاحت له هذه الرحلة ، وهذا التنقل المتصل ، خلال هذه المنطقة التى كانت تعد فى ذلك الوقت قلب العالم الإسلامى ، فرصة واسعة لدراسة طبائع الناس وأخلاقهم ومعرفة مصالحهم واتجاهاتهم ، وفهم الحياة ومشاكلها وقضاياها

وقد أنضجت الرحلة ذهن الشافعى وتفكيره ، وأمدته بقوة سيكولوجية رائعة ، وأتاح له ذكاؤه المتقد ، وقدرته العقلية الجبارة ، مرونة ولباقة جديرين بالتقدير . فهو قد غير مذهبه ، الذى وضع أصوله فى العراق ، حين استقر فى مصر ، ووضع بدلا منه مذهبه « الجديد » الذى ضمنه خلاصة تجاربه وملاحظاته ودراساته خلال تلك الفترة الطويلة التى قضاها متنقلا فى الأقطار الإسلامية .. ، وكانت تجارب الأئمة والفقهاء الذين التقى بهم ، وقرأ لهم ، قد تبلورت فى نفسه ، واستقرت ، فاختار منها ما رآه صالحا مع البيئة الجديدة التى استقر فيها

وإذا كان يقال إن أبا حنيفة قد شرع بروح العراق ، وإن مالكا قد شرع بروح الحجاز ، فإن الشافعى قد شرع بروح مصر . ويكاد الشافعى إلى ذلك أن يكون رابطة العقد بين فقهاء عصره ، فلقد ولد فى العام الذى مات فيه أبو حنيفة ، وتلقى العلم على مالك فى المدينة ، فبهره بجودة حفظه وأصالة ذكائه ، . . ثم كان ابن حنبل من تلاميذه

وقد التقى حين قدم العراق بأبى يوسف ووكيع ، وبذلك يمكن القول أن الشافعى قد أحاط بالفقه الإسلامى فى عهده واستوعبه استيعابا كان كفيلا بأن يجعله سيد الفقهاء وإمامهم فى عصره ، فهو الإمام الذى وضع الموازين والمقاييس ، وضبط الفقه ، بعد أن جادل الفقهاء وقارعهم وانتصر عليهم

فإذا تركنا الحديث فى فقه الشافعى للفقهاء ، وذهبنا نتقصى « شخصيته » الإنسانية وجدناها غاية فى القوة والسمو والحيوية ، وتعدد الجوانب وسعة الأفق ، وذلك بالإضافة إلى ما أثر عنه من براعة وذكاء

يتحدث الذين عاصروه عنه ، أنه كان محببا إلى نفوس عارفيه ، وكان إشعاعه ولباقته وحسن حديثه يكسبه حب الناس وتفهمهم .. مما كان يزيد عدد أتباعه ومريديه يوما بعد يوم

وأنه قد توافرت له صفات الداعية ، صاحب المذهب ، هذه الصفات التى تتمثل فيما أثر عنه من طول أناة وحلم ، وابتسام ثغر ، وإشراق وجه وبعد عن الغضب ، وتواضع وخفض جناح وسلامة صدر ، وصفح عمن يسئ إليه .. وبعد عن التعصب ، وإملاء الرأى . . فقد كان يعذر مخالفيه فى الرأى ويقبل منهم

ويرجع ذلك إلى تلك الأصالة النفسية التى كونت « طابعه » طابع الزعامة ، فقد كان « رياضيا » تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها ، وكان يرمى عشرة فى عشرة وقال عن نفسه « كانت همتى فى الرمى والعلم »

وقد نقل أسلوب الرياضيين ، من ميدان الرمى ، إلى حلبة

(١) أثبت خلاصة موجزة لهذا الفصل من بحثة الضخم الأدق

الفقه ، فكان واسع الصدر إزاء معارضيه

وآية قدرته فى الإقناع على طريقة الرياضيين ، إقناعه الرشيد ببراءته وهو يخوض بحراً من الدماء ، فقد صرع أمامه لصة ، استلت السيوف اللامعة أعناقهم ، فلما جاء دوره أعطته عارضته القدرة على أن يناقش الرشيد ويقنعه وهو فى هذا الجو الخاصف ، وإزاء هذه الشخصية الجبارة

لقد اتهم بالعمل ضد الرشيد وحمل مقيداً من اليمن مع عشرة من أصحابه ، فلما جيء بهم إلى الرشيد ، وضع حدا لأجلهم ، أما هو فقد أفنع الخليفة .. قال له وهو بين القطع والسيف ..

« .. يا أمير المؤمنين ما تقول فى رجلين أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده .. أيهما أحب إلى ؟ قال الذى يراك أخاه ! قال : فذاك أنت يا أمير المؤمنين » . فلما وضع يده على الخيط .. مضى يثبته بقوة ، قال : إنكم ولد العباس وهم ولد على ، ونحن بنو عبد المطلب ، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم ، وهم يرونا عبيدهم

... ونجا

وقد بلغ به حب الرماية أن لم يكن جلال السن والإمامة يمنعه إياه عن أن يرمى

وقالوا عنه إنه كان يقتصد فى لباسه ، ولم تعرف له صغيرة ، وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح ، فيجيئه أهل « القرآن » فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل « الحديث » يسألونه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا .. ثم تستوى الحلقة « للمناظرة » والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا ، ثم جاء أهل « العربية » والعروض والشعر والنحو حتى يأتى المساء .. والشافعى جالس فى حلقته لا يضيق بالعلم ولا بالناس

ولا عجب فقد كان الشافعى أديبا يتذوق الشعر ، ويقول أجوده ، ويقدر الجمال ويعجب به فى مختلف صوره النفسية والحسية ، بل لقد كاد أن يكون أديبا خالصا أو فنانا خالصا ، لولا أن أتيحت له فرصة دراسة الفقه ، فمضى فيه ، حتى برز وبلغ القمة فيه

وقد روى عن ذكائه وألمعيته وسرعة حفظه الكثير ، مما زاد فى قوة شخصيته أضف إلى ذلك ماروى من أنه إذا تكلم كان صوته أشبه بالصهيل أو الجرس ، وكان إذا قرأ القرآن التف حوله الناس ، وهجوا بالبكاء .. قال بعض أتباعه « كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن .. فإذا أتينا استفتح القرآن فتساقط الناس بين يديه وكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته »

ومن هنا جاءت قوته كداعية ، يستطيع أن يجمع الناس حوله وأن يحببهم إليه ، وتلك من الشمائل التى لا تتوافر للكثيرين ، وقديما كان للصوت الجميل وطلاقة اللسان من أدوات الداعية الفذ

ويرجع السر فى فصاحة « الشافعى » إلى أنه أقام بالبادية فلقن اللسان العربى

وفى المدينة وصل إليه علم « مالك » كله ، فقد لزمه حتى مات ، وفى بغداد وصل إليه علم « أبو حنيفة » كله بعد أن حمله محمد بن الحسن .. ومن ثم اجتمع له علمان : علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث

وقد وصل الشافعى بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين ، وارتفع عن أن يكون من أتباع « مالك » ، أو تلامذته الذين يجرون فى حدود مذهبه ، فكان ذلك مصدر الخلاف بينه وبين المالكية فى مصر ، وقد لقى من ذلك عنتا شديدا

وتوافرت للشافعى كل وسائل « العالم » ، كما توافرت له كل وسائل « الداعية » فقد أثر عنه أنه كان يذهب إلى الصباغين يتساءل عن معاملاتهم ، ويرتاد السوق يحدث أصحاب الحرف ..

وبلغت به الثقة أن كان يعرف أن أهل مصر فرقتان : فرقة مالت إلى قول مالك وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة ، ولكنه كان يقول فى حماسة ظاهرة « أرجو أن أقدم إلى مصر فأنبههم بشىء أشغلهم به عن القولين جميعا .. »

وقد حدث ما توقعه .. غير أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين أتباعه وأتباع مالك فلقيه فتيان ابن أبى السمح المالكى ليلا فضربه أحدهم بمفتاح حديد فشجه .. ، فلم يسعف بالعلاج فمات .. وقد مات فقيرا ، ولم يترك شيئا يذكر ، وكان قد أجهد نفسه فى الفترة التى قضاها فى مصر إجهاداً بلغ به غايته

أنور الجندى